

النثر العلمي المتأدب: قراءة في المفهوم والمعايير الفنية

Polite scientific prose: a reading of the concept and technical standards

ط.د. فيصل بلحاج *

أ.د. تاويريت البشير *

الرقم التعريفي للمقال: DOI: 023-001-017-1111/10.33705

تاريخ الاستلام: 2024.04.14 تاريخ القبول: 2024.06.04 تاريخ النشر: جوان 2024

ملخص: يهدف مقالنا هذا إلى التأصيل لمفهوم هذا الفن ودواعي ظهوره ومدى حضوره في تراثنا الفكري والأدبي، والتميز الذي يظهره بخلاف الفنون التي واكبته. والإشكالية المطروحة فيه هو هل يمكن أن يكون هذا الفن حاملا لمفهوم خاص به؟ وما معايير الفنية؟ وهل هو مقارنة نصية أم إبداع ماثوث في النتاج الأدبي والعلمي. وفي هذا كان منهجنا وصفيًا تحليليًا. وفق خطة بحث ذكرنا فيها الشواهد وتوصلنا إلى نتيجة مفادها أن هذا الفن فن نثري قائم بذاته له خصائصه التي تغنيه عن غيره.

الكلمات المفتاحية: النثر؛ العلمي؛ المفهوم؛ الفنية.

Abstract: Our article aims to establish the meaning of this art, the reasons for its emergence, the extent of its presence in our intellectual and literary heritage, and the extent of the distinction it displays in contrast to the arts that accompanied it. The problem raised in it is whether this art can carry a concept of its own, what are its artistic standards, and is it a textual approach or creativity spread from literary and scientific production. In this regard, our approach was descriptive and analytical, according to a research plan in which we mentioned the evidence, and we arrived at the conclusion that this art is a prose art that stands on its own and has characteristics that distinguish it from anything else

Keywords: prose; scientific; conceptual; artistic.

*- جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر.

البريد الإلكتروني: fayssal.belhadj01@gmail.com (المؤلف المرسل).

*- جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر. مخبر نظرية القراءة ومناهجه.

البريد الإلكتروني: bachur.taouirrut@univ-biskra.dz

1. مقدمة: لا ريب في أن الأدب شعرونثر، فإذا كان للشعر ألوان وأغراض، فإن للنثر فنون وغايات، وموضوع مقالنا هو أحد هذه الفنون النثرية والمتمثل في النثر العلمي المتأدب، لأننا وجدنا في حضارتنا ما يحملنا إليه خاصة أنه قليل الدرس والبحث فيه، فلا نكاد نرى تجارب للباحثين فيه إلا ما ندر، ولعل الدوافع لاتخاذ هذا البحث البسيط هو حاجتنا نحن كباحثين إلى الحفر في كنوز أعمال أسلافنا وأن لا نكتفي بدراسة الإبداع الشعري أو البحث في مكونات الفنون كالحكاية والمسرح والرواية، من خلال تحليل الخطاب وفق مناهج نصية أو سياقية فترائنا ثري بالأعمال. وعملنا يطرح إشكالا بسيطا في شكله عميق في مضمونه وهو ما التأصيل الصحيح لمفهوم هذا الفن؟ وهل يمكن إعطاء تعريف شامل له؟ وما عوامل نشأته وأين نرى هذا الفن هل هو قائم بذاته أم مترامن ومكتنز في ثنايا العلوم والكتابات العلمية؟ وإن كان كذلك فما ميزاته الفنية؟ فهي كلها أسئلة نحاول الإجابة عنها من خلال هذا البحث.

لهذا وضعنا خطة كان في مبحثها الأول عنوان مفاده: التأصيل للمفهوم وملامح التطور عرضنا فيها تعريف النثر عند القدماء بخلاف الشعر، وفي ثنائها مفهوم العلم، ومعاني المتأدب وحاولنا من خلال هذا وضع مقارنة شاملة لمفهوم هذا الفن، وأما ثالثا عرضنا تطوره عبر العصور بذكر الشواهد سواء من المؤلفات والمؤلفين والعلوم التي خاض فيها هذا الفن. وفي المبحث الثاني فكان دراسة استشفافية واستنتاجية لأهم الخصائص. وتطرقنا إلى ثلاثة شواهد كأثلة عن ذلك من خلال كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقرطبي، والمقدمة لعبد الرحمن ابن خلدون، سعيانا نحو الاطلاع على ثلاثة مجالات من العلوم وهي الأدب ونقده وعلم الفلك والأجرام، وعلم الاجتماع والتاريخ. وفق مقارنة تقوم على منهج تحليلي وصفي. سعيانا إلى الوصول للهدف هو إعطاء مفهوم شامل لهذا الفن واستخلاص معايير الفنية وكان لنا هذا فوضعنا نتائج ذلك في خلاصة الخاتمة.

2. التأصيل للمفهوم وملامح التطور:

1.2 تعريف النثر عند القدماء: ورد لفظ النثر في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْأً مِّنْثُورًا﴾ [الفرقان:23]، فجاءت لفظة منثور اسم مفعول أي وقع عليها فعل النثر: أي منتشرا في زوايا مختلفة. لا أثر له، وذكر صاحب القاموس المحيط مادة (ن ث ر) نثر الشيء ينثره نثرا ونثارا: رماه متفرقا، نثره بتشديد الثاء فانتثر وتناثر وتثر¹، ومنه فإن النثر في مدلوله المعجمي يحمل معنى النشر وبث الشيء وجملة مبنوثا، وذكر الزمخشري تعريفا لغويا للنثر بقوله: "نثر اللؤلؤ وغيره، وقد انتثر، وتناثر، ودر منثور ومنثر، ونثر الدر".² إذا فالمعنى المعجمي للنثر لا يخلو من البث والانتشار والشيوع وغيرها من المعاني، وبذلك فإن النثر هو جعل المعاني منتشرة في سائر أنواع الكلام، أي الكلام في شتى مجالات الحياة.

قد يقترب النثر من مفهوم التدوين، فلا يكون الكلام منتشرا إلا من خلال ما يسمعه الناس أو ما يصل إليهم وينتشر عن طريق الكتابة، وإذا كان التعريف المعجمي يدخل ضمن حيز النشر، فإن المعنى الاصطلاحي له يندرج ضمن سياق مختلف وإطار جاء مع مرحلة النقد والتدوين وقد فرقت العرب كلامها بين منظوم ومنثور، وفي هذا تباينت الآراء في تسمية النثر قديما فقد ذكر ذهب بن وهب (ت 110) أن: "أن سائر العبارة

في لسان العرب إما أن يكون منظوماً أو منثوراً، والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام³. ومنه فإن تقسيم الإبداع عند القدماء ينقسم بين الشعر (منظوم)، والمنثور وأن النثر يطابق الكلام وهو أن يحمل لفظاً مركباً تام المعنى يبلغ السامع في فهمه، وقد أضيفت كلمة الكتابة لتشمل مفهوم النثر وهذا يظهر في عناوين بعض الكتب القديمة ككتاب (الصناعتين الكتابة والشعر) لأبي هلال العسكري وكتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)، فالقدماء يطلقون مصطلح الكتابة على الكلام المنثور. وأرادوا التمييز بين الشعر والنثر من خلال الشكل ومن خلال المتن ومن خلال المبدع أيضاً ما يحمله عن غيره من ضروب الإبداع إذ يرى الجاحظ (255) أن المواهب تختلف فكل يصلح لما خلق له إذ يقول: "من يكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والأسجاع ولا يكون له طبع في قرض الشعر"⁴، وبهذا فهو ينتبه إلى دور الطبع أي البديهة والاستعدادات الفطرية في تحديد مجال الإبداع.

ويذهب كثير من النقاد القدماء إلى دور الوزن والقافية في التمييز بين الشعر والنثر وهذا ما ذهب إليه ابن قتيبة والجاحظ وغيرهما إلا أن الجرجاني له رأي آخر في هذا: "فإن زعم أنه إنما كره الوزن لأنه سبب لأن يتغنى في الشعر ويتلى به، فإننا إذا كنا لم ندعه إلى الشعر من أجل ذلك، وإنما دعونا إلى اللفظ الجزل والقول الفصل والمنطق الحسن فتشرفه إلى الضئيل فتفخمه، وإلى النازل فترفعه وإلى الخامل فتنوه به، وإلى العاقل فتحليه"⁵، فإلى جانب ما يميز الشعر من جوانب خاصة بالإيقاع والنغم الموسيقي فهو يحتاج إلى مأخذ متعددة، وحسن نظر، وإجادة وإبداع وتلاعب في الألفاظ والمعاني ومقدرة لا يمكن أن يحوزها صاحب الكلام المنثور. وذهب بعض من النقاد القدماء إلى أفضلية النثر على الشعر كالقلقشندي (821)، إذ عرض أولاً خصال الشعر من ناحية الشكل والمضمون فيقول: "اعلم أن الشعر وإن كان له فضيلة تخصه ومزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرد به باعتدال أقسامه وتوازن أجزائه وتساوي قوافي قصائده، مما لا يوجد في غيره من سائر أنواع الكلام مع طول بقائه على ممر الدهور والأزمان، وتداوله على ألسنة الرواة وأفواه النقلة لتمكن القوة الحافظة منه بارتباط أجزائه وتعلق بعضها ببعض مع شيوعه واستفاضته وسرعة انتشاره وبعد مسيره وما يؤثره من الرفعة والضعة باعتبار المدح والهجاء، وإنشاده بمجالس الملوك الحافة والمواكب الجامعة"⁶، فهو يورد مزايا الشعر من حيث شكل القصائد التي تمتاز بالنظم الفريد والتساوي في الأجزاء والأوزان وما يتركه من أثر في الذوق حتى صار مطلباً لدى مجالس الملوك، وكذا قدرة الشعر على التمكن في النفوس لسهولة حفظه وانتشاره بين الناس، ولميله إلى الإيقاع الذي يؤثر في وجدان الإنسان وتميل إليه الجوارح طرباً، إلا أن القلقشندي يؤثر النثر ويفضله للأسباب التالية: "فإن النثر أرفع منه درجة وأعلى رتبة، وأشرف مقاماً، وأحسن نظاماً، إذ الشعر محصور في وزن وقافية يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود ومد المقصور، وصرف ما لا ينصرف ومنع ما ينصرف من الصرف وغيره مما تلجأ إليه ضرورة الشعر"⁷، فقد عدّ عيوب الشعر في أنه يخلُ بقواعد الكتابة العربية الصحيحة، وبسلامة اللفظ أحياناً، هذه القيود المفروضة على المبدع إلى حد الإسراف في التصرف في المباني، والمبالغة في الجوازات الشعرية.

جعلت المعنى هو الذي يتحكم في النص بدلا من اللفظ، ويكون الإبداع هنا مرهونا بالأغلال، التي سلم منها النثر فسلمت مبانيه فانساقفت معانيه مع سلامة مبانيه، وهكذا يكون الإبداع أكثر حرية وقديما قالوا يجوز للشاعر ما لا يجوز للنثر. فإذا لا وجود تعريف دقيق للنثر بل تباينت مصطلحاته بين (الكلام، الكتابة) بل تعريفه كان من خلال الفروقات التي ينفرد بها عن الشعر بأن لا يحمل إيقاعا وأنه موجود في سائر ضروب الحياة من خطب وترسل ووصية، شريطة أن يكون تام الفائدة.

والمتتبع لمسار النثر في أدبنا العربي يجده زاخرا بالفنون، فمنذ نشأته تلقى النثر تطورا كبيرا على مرّ العصور والأزمنة، فنجد في العصر الجاهلي كالخطب والرسائل والمعاهدات والمواثيق كحلف الفضول، ولكن في صدر الإسلام كان النثر في فسحة لما نجد من تأثير الإسلام فيه، وهذا بإدراج الخطبة كفريضة في صلاة الجمعة وفي العيدين وغيرها من الشعائر والعبادات، فيكون الخطيب على محمل من الجد حينما يُلقى كلامه على مسامع الناس، وفن الترسل لقي رواجا في العصر الأموي لتباعد الأمصار، وانفتاح الإسلام على عوالم بعيدة وأماكن متباعدة، فظهرت الرسالة كعربون تعاون بين الخليفة والولاة أو الرعية. وازدان النثر في العصر العباسي لانفتاح الناس على الثقافات المجاورة، وإطلاق العنان لحرية التفكير، وامتازت هذه المرحلة بحركة النقل والترجمة التي انتشرت وذاع صيتها تحت تحفيز الخلفاء، فقد برزت فنون أدبية كثيرة لكثرة العلوم وتوافد الناس على الكتابة فإلى جانب تطور فني الرسالة والخطابة، نجد القصة والأقصوصة، والأسطورة والحكاية، والمقامة كفن عربي فريد لا نجد له مثلا عند الأمم السالفة ولا اللاحقة، وقد كتبت في مضمار النثر كتب كثيرة ككتاب كليله ودمنة (القصة على لسان الحيوان) لابن المقفع، وكتاب ألف ليلة وليلة وهو نوع آخر من الحكاية والتجربة الفنية المشوقة، وكتاب مقامات بديع الزمان الهمذاني وغيرها كثير، ولكن ما برز في هذا العصر هو فن يميل إلى الإبداع والإمتاع الأدبي ويتراوح بين الجانب الفكري العلمي والجانب الفني التعبيري، فما هو هذا الفن؟ وما أساسه وكيف انتشر؟ وما موضوعاته ومميزاته؟

2.2 مفهوم النثر العلمي المتأدب: من خلال المصطلح يمكن أن نتبين أن النثر العلمي المتأدب امتداد لثلاث أشكال من المصطلحات (نثر) / (Prose) / (العلمي Scientific) / (المتأدب The polite one)، وعليه يجب أن نتطرق إلى معاني هذه المصطلحات الثلاث قبل أن نؤسس لمفهوم شامل لها كمركب اضافي يمكن صياغة مفهومه. فإذا كان النثر قد تم التطرق إليه من خلال ما سبق. فلا ريب في أن أدبية الأدب تظهر للوهلة الأولى على أنها البحث عن الجمال، والارتقاء باللفظ إلى حدود المعنى الشامل والسليم في القصد، وحين التحديد يمكن القول إنَّ لفظ الأدبية مصدر صناعي متكون من شقين (أولاهما الأدب وثانيها يّة) بالتشديد على الياء، وعليه فإن هذا المصطلح وليد النقد الحديث وتحديدًا عند المدارس التي اهتمت بعلم الأدب أي أنه وليد نظريات الأدب المختلفة، في حين يتضمن المعنى الخاص بالأدب؛ "كل الأعمال التي تغلب عليها الوظيفة الجمالية"⁸، ولم يطلق مصطلح الأدبية في التراث النقدي القديم إلا مرادفا لمفهوم الديباجة حينما أرادوا أن يضعوا قالبًا متينًا للإبداع الذي يجب أن تحكمه ضوابط ومعايير. ولكن في المقابل نجد نظريات كالانعكاس والمحاكاة تطرقت إلى جانب أدبية الأدب حسب ما يمكن أن يحمله من عناصر، فلا يمكن أن نطلق لفظ الأدبية على

نص إلا إذا امتاز بمجموعة من الأسس وهي الخيال والبيان (الكلام البليغ)، والفصاحة، والعاطفة. "فإن كان الأدب في أبسط تعاريفه مجموعة من الأهداف الفنية التي تؤثر في المستقبل فإن الأدبية موجودة حتما في هذه النصوص"⁹، ومنه فإن معنى الأدبية تخص العناصر الجمالية للنص وبذلك فإن لفظ المتأدب مأخوذ من هذا السياق الذي يدور في فلك جمال النص، والمتأدب من الفعل تأدب الذي يحمل معنى الرزانة والحكمة والتعقل ومنه جاءت كلمة الأديب. أما مصطلح العلمية أو النص العلمي هو: "حدث لغوي ومنتوج معرفي متخصص يشمل ترسانة من المفاهيم العلمية الخاصة لميدان معرفي ما، والمصطلحات اللغوية الواصفة الشارحة لتلك المفاهيم الضابطة لها المحددة الدالة عليها"¹⁰، من خلال هذا التعريف يظهر أن النص العلمي يمتاز بجملة من الخصائص تختلف عن باقي النصوص ومنها المصطلح العلمي الذي يندرج ضمن إطار معين يحمل موضع الدرس، وكذلك الاعتماد على الشرح فهو ينفرد كونه واضحا يعتمد على اللفظ البسيط المباشر الذي يبتعد عن الوحشي منه وتغيب لديه كل أشكال القاموس المعقد، أما ما يميز العلم فلا بد للنص أن يخلو من الذاتية، كما يبتعد عن التنميق والصنعة والتكلف والبعد عن الخيال وفوق كل هذا لا بد أن لا نرى أثرا لشخصية الكاتب فالنص يُنم عن الحياد ولا ينساق وراء النزوات والأهواء؛ فهو يهدف إلى إفادة المتلقي على أبسط شكل من دون تعقيد أو تطويل، وأن يحمل في طياته غاية وهدفاً علمياً، وهنا يمكن إعطاء مفهوم للنثر العلمي المتأدب من خلال هذا التأصيل الذي فرغنا من شرح مصطلحاته الثالث. إذاً فمفهوم النثر العلمي المتأدب هو: الكتابة في حقل من حقول العلم بالاعتماد على الشرح والحياد بعيداً عن الأهواء، غايته إفادة المتلقي بمجال الدرس بأسلوب يرقى إلى الجمال الفني والتعبيري، أو إن شئت قل: هو أحد الفنون النثرية التي تخوض في شأن من شؤون العلم يختلف عن باقي الفنون بموضوعيته وسهولة ألفاظه وقرب معانيه مع الإجابة في التعبير والبراعة في الأسلوب.

3.2 ملامح تطوره: لم يكن للعلم حظ في العصور التي سبقت العصر العباسي ماعدا تلك الشهب التي تظهر الفينة بعد الأخرى. وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى طبيعة التحول الحضاري، والتغير الذي نشأ عن العقل العربي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الذي سقط في وحل الفتن والنزاعات السياسية، مما انعكس سلباً على حياة الناس. فكان الجمود هو الطاغى على الفكر العربي. ولكن في العصر العباسي حينما أдал الله عليهم الخلافة أخذوا الدروس والعبر ممن سبقوهم ووجدوا أن خضوع الناس وانقيادهم هو بإطلاق حريتهم في التدبير والتفكير. وعندما اتسعت رقعة الإسلام واختلط العرب بالعجم وانفتح الناس على من سبقهم إلى الحضارة التي امتازت بها الشعوب المختلفة، بانت العلوم بل توسعت في تخصصات ومجالات وبلغ العقل العربي مبلغ النضج وصار حقلاً خصباً للتجارب والحرية في التفكير. وانقلب ذلك على النثر لأنك لا يمكن أن تكتب في مجال العلوم ما لم تكن محاطاً بها. والعباسيون كانوا منفتحين إلى حد بعيد على هذه الثقافات فاستفادت الأمة من طب الهنود والهندسة الفارسية ومن الفلسفة الإغريقية وظهر تأثير الثقافات المجاورة في ذلك إلى حد بعيد عن طريق حركة الترجمة والنقل التي شاعت في عصر هارون الرشيد وبلغت أوجها في عصر المأمون، وكانت شوارع بغداد والبصرة والكوفة ومساجدها محاطة بطلاب العلم بل وُنبت المدارس والمكتبات

منها بيت الحكمة في بغداد، وأطلق العنان للمناظرات بين أهل المذاهب والنحل، وكان لها تأثير واسع في بروز علم الكلام الذي مهد بدوره إلى الحجاج والاستدلال الذي ميز مؤلفاتهم في هذا العصر، هذه السبل والأسباب كان لها الدور الفعال في انتشار العلوم وتطورها. فقد اشتهر الرازي في الطب والكيمياء وجمع بينهما وجعلهما علما مشتركا وبلغت مؤلفاته الطبية نحو (56) كتابًا أشهرها: كتاب «الحاوي» ويقع في عشرة أجزاء يختص كل منها بطب عضو من الأعضاء أو أكثر. وكتاب «المنصوري» وهو عشر مقالات في تشريح أعضاء الجسم كلها أهداها الرازي إلى المنصور بن إسحاق حوالي عام (293 هـ). ورسالة «الجدي والحصبة»، أول بحث في تاريخ الأمراض الوبائية. ونجد الزهراوي الذي يعد مفخرة الجراحة عند المسلمين، ويعتبر كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» أكبر مؤلفاته وأشهرها؛ فهو موسوعة طبية تقع في ثلاثين جزءًا، وابن سينا المفكر الفذ الذي جمع بين الفلسفة والطب وتمتاز مؤلفاته بالدقة والوضوح وهي كثيرة أشهرها كتاب القانون في الطب، ونجد في علم الفلك والأجرام كتاب النجوم الثابتة لأبي الحسن الصوفي، وألف البتاني كتابه دلائل القراءات والكسوفات تضمن شرح للأبراج الفلكية، وفي الفيزياء برز ابن الهيثم الذي له نحو 96 كتابا، والكندي الذي كان له الفضل في إدخال الرقم الفارسي إلى العالم الإسلامي، واشتهر في الرياضيات الخوارزمي الذي اكتشف موضع الصفر، وهو أول من خط العدد العربي الذي اعتمدته فيما بعد المدرسة الإنجليزية (1)، (2، 3)، وفي الفلسفة وعلم المنطق والكلام نجد بلا منازع أبو حامد الغزالي صاحب كتاب المنقذ من الضلال الذي تكلم فيه بالحجة والإقناع جوابا عما سئل عنه بما استخلصه من تجربته الروحية والعلمية، ونجد في النقد والأدب موجًا كبيرًا من أهله وأحسن مثال على هذا الجاحظ صاحب البيان والتبيين، وفي التاريخ نجد العالم الجليل الطبري صاحب كتاب تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، وأما في الفقه وعلم الأصول والتفسير، وعلم الحديث، فحدث دونما توقف فهي كثيرة لا إحصاء لها، وانتهت الخلافة العباسية ولم تتوقف تلك الحركة الأدبية العلمية، ولما أдал الله الحكم للمماليك وجد هذا الفن رواجًا تحت رعاية السلاطين بسبب كثرة المدارس وإقبال العلماء عليها، فإذا كانت بغداد حاضرة الدولة العباسية، فالقاهرة كانت حاضرة الدولة المملوكية بسبب جامع الأزهر، مع كثرة التصنيف والتأليف والكتابة، فاشتغل بالنحو مثلا ابن مالك الطائي، بألفيته المشهورة، وكذا ابن هشام الأنصاري صاحب قطر الندى وبل الصدى، وكان لعلم الأحياء دور هام في هذا العصر فنجد كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري، وأما علم الجغرافيا فإن أصحابها كتبوا ما أخذوه على سبيل التجارب والرحلات ولعل أشهرها عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني جمع فيها إلى جانب الجغرافيا شيئا من علم الفلك والطبيعة، وكذا تحفة النظائر لابن بطوطة، ولعلم التاريخ حظ كبير فقد ظهرت كتب كثيرة يصح الركون إليها وأشهرها على الإطلاق كتاب تاريخ الإسلام لشمس الدين الذهبي، كما ظهر في هذا العصر علم جديد وهو علم الاجتماع من خلال كتاب العبر في تاريخ العجم والعرب والبربر أو ما يعرف بالمقدمة لعبد الرحمن ابن خلدون، ومن المؤلفات من تجد فيها موسوعة في شتى العلوم نجد كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، والأبشيبي صاحب المستطرف في كل فن مستظرف، حتى إذا طالعتهما تجد فيها من العلوم والأدب والجغرافيا وتقويم البلدان والتاريخ الشيء الكثير،

أما في العهد العثماني لم تكن بالشكل الذي سبق لتصلب ذهن الخلفاء واستبدال العربية بالعثمانية، إلا أننا نجد بعض الشهب الفريدة ككتاب نفح الطيب من تاريخ الأندلس الرطب للمقري، والكشكول لهاء الدين العاملي جمع فيه بين الأدب والرياضيات وعلوم الشريعة، ولن نفي حق هذين العصرين (العباسي والمملوكي) الذين ازدانا بهذا الفن من خلال العلماء والكتاب الذين خاضوا في شتى مناحي الحياة إلا أننا اغترفنا غرفة من بحر وأخذنا غيضاً من فيض لكثرتها وكثرة العلوم المصنفة فيها، أما في العصر الحديث قبيل حملة نابليون بونابارت على مصر عام 1798م، لا نكاد نرى هذا الفن لذبول شعلته من قلة التأليف فيه، لأسباب كثيرة منها خضوع الأمة للاستعمار الذي عطل هذا الفن وأحيا عوضه فناً جديداً وفر سبله بالطباعة والصحافة ووسائلها تمثل فن المقال.

3. المعايير الفنية من خلال النماذج: النثر العلمي المتأدب كغيره من الفنون النثرية يختص بميزات تختلف عن غيره من النصوص، وبالتالي سنستعرض نماذج من مختلف العصور لنقف عند الخصائص من مختلف العلوم، واقتراحنا أن نبدأ بالأدب ونقده واخترت لذلك كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكذا علم الجغرافيا والفلك من خلال كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني، وعلم التاريخ من خلال المقدمة لابن خلدون.

المعايير الفنية من خلال كتاب البيان والتبيين: الكتاب ألفه الجاحظ عمرو بن بحر أبو عثمان البصري (159هـ-255هـ) وخير تعريف للكتاب ما قاله الجاحظ نفسه عنه "ودلالة القصد من البيان (الدلالة في المعنى) والتبيين (الإيضاح)" وقد عرّف الكتاب خير تعريف بقوله "هذا أبقاك الله الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين وما شابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنه والنّنف المستخرجة والمقاطع المتخيّرة، وبعض ما يجوز في ذلك من الأشعار المذكورة والجوابات المنتخبة"¹¹، فلقد اختار لهذا الكتاب طابعاً فريداً هو أن يتقاسم مع القارئ جواهر ودرر من الأقوال والخطب بغية البعد عن الملل، والانصراف إلى النقد الذي يراه مناسباً لكل مقالة أو خطبة ويبيدي رأيه في مسائل الإعجاز والبيان والبلاغة وقرض الشعر ونحوه وموضوع الكتاب يخص بالدرجة الأولى الفلسفة وعلم البيان وقد قسم موضوع درسه إلى ثلاث أقسام فجزّؤه الأول تحدث عن مفهوم البيان وأنواعه وآفات اللسان، والثاني تطرق إلى الشعر وطبقاته الشعراء وفن الخطابة، وأما الثالث فتحدث عن نقد الشعر وكذا أصل اللغة، وفي كل جزء يميل إلى الاستدلال من خلال كلام الأنبياء ورسائل الخطباء وأقوال الشعراء.

ولا يسعني الحديث عن أسلوب الجاحظ في الكتابة بقدر ما نستشفه من خصائص النثر العلمي المتأدب الواردة في الكتاب، ولهذا نورد كلاماً تحدث فيه عن مفهوم البيان وأقسامه: "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُغضّي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر أو الغاية التي يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحته المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع، وجميع أصناف الدلالات على المعاني لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم

الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة، والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائلة من صورة صاحبها وحيلة مخالفة لحيلة أختها¹²، الميزة الأولى المستخلصة من هذا القول هو البداية بالحكم المجمل من خلال تعريف البيان ثم يأخذ في شرحه كلمة كلمة؛ فهو يبدأ بالإجمال ثم ينتقل إلى الجزئيات فالجزئيات، حتى تخاله بشكل هرمي من القمة نحو الأسفل، وهذا التفصيل يسري بشكل هرمي في سائر كتبه فهو يفصل من الكل إلى الجزء، وعندما يلتبس عليك الأمر في الفهم يقوم بالشرح ويسرد المعنى القريب لذهن السامع أو المتلقي، وثاني الميزات هو التكرار المرادف للمعنى كأن قال (كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب)، (صاحبها، أختها) هذه الألفاظ تكاد تكون في قالب معنوي واحد وهذا من الإطناب، والثالثة لغة التقييم، فقد ذكر الرقم خمسة دون غيره من الأرقام وهذا لما للعلم من أهمية، فالعلم قائم على لغة الإحصاء، ورابعها استخدام المصطلحات العلمية ضمن العلم المدرج وهو علم البلاغة. فقد استخدم ألفاظ (البيان، الفصاحة، اللفظ، المعنى) وهكذا، ونادرا ما نرى في النثر العلمي المتأدب الشخصية العلمية كما ظهر في هذا الكتاب.

2.3 المعايير الفنية من خلال كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: وهو كتاب ألفه أبو يحيى عماد الدين زكريا بن محمد المعروف بالقزويني نسبة إلى موطنه قزوين (600-682هـ) كان قاضيا في عهد المستعصم، له بضعة مصنفات أخرى منها كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، أما كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات فقد خص به علم الجغرافيا وشيئا من علوم النبات والحيوان والفلك والجيولوجيا، ليحقق شهرة واسعة فيما بعد ممهدا لكثير من المؤلفين بعده أن ينهلوا من منهجه كالدميري من خلال كتاب حياة الحيوان، كما تُرجم إلى لغات كثيرة منها الفارسية والفرنسية، ويتألف الكتاب من مقدمة وقسمين أو مقالتين كما سماها هو، ويبدو أن القزويني كان يولي أهمية للمقدمة فكانت طويلة سعى من خلالها إلى شرح مؤلفه وغاية كتابته كما عبر عن هذا بقوله: "التفكير في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمها وتصريفها ليظهر له حقائقها"¹³، فلقد أبرز دور التدبير في ملكوت الله وسعيه إلى فهم العالم المحيط به.

يمكن من خلال هذا الكتاب أن نستشف خصائص فن النثر العلمي المتأدب، ذكر القزويني في كتابه عن القمر شكله وموقعه في الكون، بعدما عرض الفلك وما يحتويه من أجرام إذ يقول: "وهو يحده سطحان كرويان متوازيان مركزهما مركز العالم، السطح الأعلى منه لمقعر فلك عطارد، والأدنى لمحدب كرة النار، ويتم دورته في كل ثمانية وعشرين يوما بحركته التي تختص به من المغرب إلى المشرق، وفلك تدويره يدور في الفلك الحاوي في كل أربعة عشر يوما مرة، ففي الدورة الأولى يكون القمر بوجهه الممتلئ إلى مركز الأرض، ثم إن فلكه الكلي ينقسم إلى أربعة أفلاك ثلاثة منها شاملة إلى الأرض وواحد صغير غير شامل"¹⁴ فمن خلال هذا المقطع يظهر لنا أن الرجل له أسلوب مباشر دون مقدمات تذكر فذهب مباشرة إلى صلب الموضوع من باب الإجمال محاكيا كتاب البيان والتبيين، وثانيها اللغة الدقيقة بالأرقام والإحصاء مع الإفادة في الوصف حتى كأنك ترى القمر نصب عينيك، إضافة إلى الشرح والتحليل والتعليل يتجلى في مثل قوله (وهو، أما، أما، وهكذا)، وهذا ما اعتمده في كتابه كحديثه عن القمر لما ذكره بالعناوين الآتية: (حقيقة الأفلاك، فلك القمر، في زيادة ضوئه

ونقصانه، خسوفه، خواصه وتأثيراته العجيبة)، ومن بين الخصائص الفنية لأسلوبه في هذا النوع من النثر الاستنباط من كلام وتجارب السابقين مع الاستدلال عليها بواقعه من تجارب تثبت أو تنفي ذلك، كما في قوله عن تأثيرات القمر في تجارب الأولين: "زعموا أن تأثيراته بواسطة الرطوبة كما أن تأثيراته بواسطة الحرارة، ومنها أن الأطباء ذهبوا إلى أن أحوال البحرانات وتقارب أيامها مبنية على زيادة ضوء القمر ونقصانه، ومنها أن الحيوانات تكثر ألبانها من ابتداء زيادة نور القمر إلى الامتلاء"¹⁵ وعليه فإن من مزايا النثر العلمي المتأدب التنوع في الاستدلال والحجاج بما يخدم موضع الدرس ولو كان من واقعه.

3.3 المعايير الفنية من خلال كتاب المقدمة لابن خلدون (732هـ / 808هـ): كتاب مقدمة ابن خلدون هو مدخل لكتابه الكامل: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العجم والعرب والبربر وممن جاورهم من ذوي الشأن الأكبر، والقارئ له يجد نفسه أمام علم مؤسس جديد هو علم التاريخ وعلم الاجتماع، وعالج الكتاب الفهم الصحيح لطبيعة العمران والمنهج العلمي للدراسات الإنسانية وضم ستة أبواب: فالأول عالج العمران البشري والثاني العمران البدوي والثالث الدول والملك والمراتب السلطانية والرابع العمران والبلدان والخامس في الصنائع والمعاش والأخير في كيفية اكتساب العلوم وتعلمها، ويعد هذا الكتاب محطة فارقة في العقل البشري، ولا ريب في أن نجد علماء الغرب وفلاسفته نهلوا من فكر ابن خلدون وتأثروا بمنهجه في التأصيل للعلوم وإتباع الغايات من أي علم.

وعليه فهو نموذج يصح الاعتماد عليه في استشفاف المعايير الفنية لهذا الفن ومن خلال هذا المقطع النصي نستكشف بعض الميزات الفنية للنثر العلمي المتأدب عنده إذ يقول ابن خلدون: "اعلم أن فن التاريخ فن غزير المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تُحكَّم أصول المادة وقواعد السياسة ولا طبيعة العمران في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب بالشاهد ولا الحاضر بالذهاب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق،"¹⁶ فالمنهج الذي سلكه الكتاب السابقون في هذا الفن هو نفسه الذي تبناه ابن خلدون فهو يذهب مباشرة إلى تحديد المفهوم والغاية من ذكره (حكماً مجملاً) ثم يأخذ في التفصيل فيه بالاعتماد على الشرح والتعليل حتى تبلغ الرسالة مع الاستدلال والحجاج والبرهان كما في قوله: (لأنها مطية الكذب)، وابن خلدون كغيره من العلماء فهم يؤصلون للعلم قبل الخوض فيه بتعريفه وذكر فوائده وأهدافه ثم يذهبون إلى الغرض المراد بالإضافة إلى هذه المنهجية نجد الاعتماد على الشرح بذكر المرادفات والتكرار المعنوي وأسماء الشرط مع الاستفاضة في ذكر الشواهد، كما نجد ذلك في كتاب العبر ومن الخصائص أيضاً الدقة في استخدام المصطلح، ولا يذكر علماً إلا وله مصطلحاته التي تنضوي تحت حقل ذلك العلم فنجد مثلاً عند حديثه عن التاريخ ذكر الحقول المعجمية التي تنتهي إليه مثل (السياسة، القواعد، العمران)، ونرى أيضاً أن المواضيع التي تحدث عنها تمتاز بالحياد والموضوعية، وإذا ذكر رأيه في مسألة فأنها لا تخلو من

الإقناع يعتمد فيها على الشرح وأسلوب المقارنة (البدو، الحضر، الرعاة، الرعية)، فتلخصت المعايير الفنية لهذا اللون النثري من خلال مقدمة ابن خلدون، بإيراد الشواهد وكثرة الاستدلال مع الدقة في انتقاء المصطلحات بموضوعية وحياد مستعملاً أسلوب الإقناع والنقد بالشرح والمقارنة.

خاتمة:

يمكن القول إن النثر العلمي المتأدب فن قائم له أصول وأسلوب تأصل ضمن المحاولات والتجارب التي قام بها العلماء عند شرح العلوم وعرض قواعدها عبر المراحل التاريخية لها ولقد واکمها وانبثق عنها وكبر، وأن هذا الفن يحمل جينات خصوصية تختلف عن غيره من الفنون بالرغم من اختلاف أساليب الكُتّاب وبراعتهم ومدى مقدرتهم على امتلاك ناصية اللغة، والنثر العلمي المتأدب يمتلك شعيرة خاصة فهو إلى جانب الفوائد التي يزخر بها فهو يتحلّى بجوانب كثيرة من الجمال الفني والقدرة في التأثير بأسلوبه الممتع القريب من النفوس والذي يؤثر في الذهن، وهو امتداد لتطور الحضارة الإسلامية فهو يوثق لهذه الحضارة عبر أدبه الزاخر وعلمه الغزير، وفوق كل هذا فهو باب مفتوح للدراسات سواء بتطبيق مناهج تحليل الخطاب عليه أم القيام بتجربة النقد على نصوصه التي لا تعد ولا تحصى، ولقد تبين بعد العرض أن النثر العلمي المتأدب ينم عن جملة من الميزات الفنية وهي:

- الموضوعية في الطرح والبعد عن الأهواء إلا في النادر منها، والحياد في الرأي إلا إذا عرض التحليل وناقش وبين ثم يبدي رأيه الذي فيه لمسة العالم المتمرس في العلوم؛
- الاعتماد على الشرح والتعليل، وسرد آراء العلماء وغلبة الاستدلال بذكر الشواهد والأدلة والميل إلى الحجاج والإقناع خاصة إذا تأكد الكاتب من المعلومة التي هي مدار الدرس، مع التكرار والتنويع في الحجاج بمؤشرات التوكيد أو أساليب الشرط أو الترادف والتضاد؛
- الاستغلال الأمثل للمصطلحات العلمية، ولعل هذا الفن هو أول نص استخدم فيه الجانب العلمي ولا نرى هذا عند الغرب إلا بعد الثورة الصناعية أين ظهر المقال العلمي، وحتما المصطلح العلمي يكون في خضم الحديث المراد مناقشته من طرف كتابه؛
- منهج علمائه الذي يقوم على خاصية الإجمال ثم التفصيل فنراهم يُعرّفون ويعرضون مفهوم المادة ثم يأخذون في التفصيل من الكليات إلى الجزئيات بشكل مرتب فريد، وهذا المنهج غايته إيصال المعلومة في قالب هرمي لا يحيد عنه القارئ بشكل مبسط، ويدل هذا على تمكنهم من مادة الدرس وكذا براعتهم في أخذ القارئ إلى موضع التشويق.
- ومن أهم التوصيات التي توصلنا إليها في هذه الدراسة:
- ضرورة الالتفات إلى الكم الزاخر من مؤلفات ومصنفات السابقين بالدراسة والتحليل وتطبيق المناهج الأدبية واللغوية الحديثة عليها؛
- التوصية بالعناية بنصوص النثر العلمي المتأدب المحبوسة في ثنايا الكتب من غير دراسة ولا تحليل ولا تطبيق للمناهج النصية والسياقية عليها.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1. إسحاق بن إبراهيم سليمان بن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تح حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، ط1، 1969.
2. بشير إبرير، بنية الخطاب العلمي في كتاب سيبويه مخارج الحروف عينة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، بسكرة، العدد 7، جوان 2010.
3. توفيق الزيدي، مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى غاية قرن الرابع، سراس للنشر، تونس، (د، ط)، 1985.
4. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، تح: عبد السلام محمد هارون، البيان والتبيين، مكتبة الهلال، القاهرة، مصر، ط1، ج3، 1998.
5. الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (د، ط)، 1999.
6. رينيه ويليك وأوستن وارين: نظرية الأدب، تر: محي الدين الصبحي المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط1987.
7. الزمخشري جار الله محمود ابن عمر، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ج2، ط1، 1998.
8. عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار القلم بيروت لبنان، دون تحقيق، ط1، 2000.
9. الفيروز آبادي، مجد الدين ابن يعقوب، القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت لبنان، ط1، 2003.
10. القزويني زكرياء بن محمد بن محمود الكوفي، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دون تحقيق، مؤسسة الأعلمي للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 2000، ط1.
11. القلقشندي أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ج1، ط1، 2002.

الهوامش:

- 1- الفيروز آبادي، مجد الدين ابن يعقوب، القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت لبنان، ط1، 2003، ص432.
- 2- محمود ابن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، لبنان، ج2، ط1، 1998، ص248.
- 3- أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم سليمان بن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تح حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، ط1، 1969، ص127.
- 4- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر ج1، ط7، 1998، ص208.

- 5- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، دلائل الإعجاز، تح محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (د، ط)، 1999، ص24.
- 6- أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تح، محمد حسين شمس الدين، دارالكتب العلمية، بيروت لبنان، ج1، ط1، ص59، 2002.
- 7- المرجع نفسه، ص60.
- 8- رينيه ويليك وأوستن وارين: نظرية الأدب، تر: محي الدين الصبحي المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط1987، 2، ص19.
- 9- توفيق الزبيدي، مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى غاية قرن الرابع، سراس للنشر، تونس، (د، ط)، 1985، ص3.
- 10- بشير إبرير، بنية الخطاب العلمي في كتاب سيبويه مخارج الحروف عينة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، بسكرة، العدد 7، جوان 2010، ص20.
- 11- الجاحظ، عمرو بن بحر، تح عبد السلام هارون، البيان والتبيين، مكتبة الهلال، مصر، ط1، ج3، 1998، ص237.
- 12- المصدر نفسه، ص81 و82.
- 13- زكرياء بن محمد بن محمود الكوفي القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دون تحقيق، مؤسسة الأعلي للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 2000، ط1، ص8.
- 14- المصدر نفسه، ص20.
- 15- المصدر نفسه، ص22 و23 بالتصرف.
- 16- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار القلم بيروت لبنان، دون تحقيق، ط1، ص10، 2000.